سودان القرن التاسع عشر بين السلطان ومجاراته ولاهوت الثورة

تكمن أهمية سودان القرن التاسع عشر ، أنه الفترة التي تحللت فيها دولة الفونج ، مما مهد لغزوة محمد على باشا ، حاكم مصر الحديثة ، ونجحت النخبة العثمانية المتمصرة في أنهاء دولة الفونج ، بعد مناوشات بسيطة من قبل قبيلة الشايقية ، على مشارف كورتي ، ولكن جند مشيخة الشايقية اندمج في جيش الغازي العثماني المتمصر ، وخرج آخر حكام الفونج مستسلما ولم يواجه الجيش الغازي بعد ذلك ، إلا بفورة الملك نمر ، التي يعتبرها البعض الشرارة الأولي لحركة المقاومة الوطنية ، بينما عدها البعض عملا غير مدروس ، أدي إلى عواقب وخيمة على المجموعة الجعلية .

وفي الفترة 1820/1874، لم يحدث حدثا كبيرا ، سوي الحراك الذي قاده الزبير باشا رحمة ، والذي نجح في إقامة كيان في بحر الغزال ثم توسع فيه إلى أن ضم إليه دارفور بعد معركة منواشي 1874م ، وقام الزبير باشا بإهداء ، هذا الصنيع إلى حاكم مصر الخديوي اسماعيل ، لتبرز نواة السودان الحديث، ولكن حاكم مصر بعد أن شكره ، قال له ما معناه ، إن مصر لن تسمح بوجود مركز قوة في جنوبها ولذلك أبقاه في مصر ثم نفي بعد ذلك إلى جبل طارق .

ونال حكم النخبة العثمانية المتمصرة ، مباركة شيوخ القبائل وأئمة الطرق الصوفية بعضهم عن يمين وولاء وبعضهم مداهنة ومصانعة ، وبعضهم كانوا في الأصل صنائع للنظام الجديد ولم يطرأ طاريء بغير علاقة السلطان القائم إلا لاهوت الثورة المهدوية ، القائم على اللامعقول في السياسة والجهاد ، وما كان للاهوت الثورة القائم على اللامعقول في السياسة الشرعية ، أن ينال المشروعية والتأييد في مناطق المحاكمة الحضارية.

وقد ناقش ذلك عدد من المؤرخين والكتاب السودانيين ، مثل عبدالله على إبراهم الصراع بين المهدي والعلماء ، وأبوسليم ، في الحركة الفكرية في المهدية ، والخصومة بين المهدي والعلماء ، وقديما نعوم شقير في سفره الموسوعي ،جغرافية وتاريخ السودان ، كما تناول السيد / الصادق المهدي القضية في إطار علم النفس وكان مشغولا بمصداقية المهدي والهواتف العلوية التي يتلقاها والتي رشح بها نفسه كمهدي آخر الزمان الذي يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا .

وتبدو الكتابة عن المهدية أمرا صعبا ، حتى بعد مائة وست وثلاثين عاما من اندلاعها، لأن المراجعات بشأنها ، وتحديد وضعيتها أشبه بالسير على العواطف والمنحنيات النفسية والمشكلات العقلية والعصف بالاشواق والأماني والمباني والمعاني وقصور من المشاعر شاهقات، من الصعب تصويبها أو تعديلها – فالتعلق والهيام بالأبطال وبالمثال والكمال ، نوع من الحب الكامن أشد فتكا وإفتراسا من العشق – لأن حب الكمال والإبطال ضريبته أحيانا الشهادة والموت وسفك الدماء – ولذلك فمن الطبيعي أن الذين حاربوا مع المهدي لنصرة الدين ورأوا معجزات أو ما حسبوه كرامات ، أن يقبلوا مراجعات حتى ولو على شاكلة مراجعات بابكر بدري في مذكراته(حياته) لقد تشكل جدار نفسي مثله مثل ماورد في كتاب الطبقات في حق ممن حسبو الأعداد الشيوخ من الصالحين، بما ورد في حقهم من صنوف اللامعقول والمدائح والغلو في الإطراء، والثناء لذا فما أن يمس كاتب هذا الكيان والتراكم الروحي والنفسي حتى يسحب متهجما على المقدس ، لأنه يتغول على

ضمائر وعقول وتراكيب نفسية وأيدلوجية ، لها مصالح مادية وروحية وسياسية وأي محاولة لاختراق هذا الجدار النفسي العقلي المثالي يردي عقول مجموعة إنسانية كاملة ذهولا وإرتباكا .

لقد استخدم عدد من رواد الجماعات الإسلامية راية المهدية ولعل أكثرهم نجاحاً هو المهدي يوسف بن تاشقين المولود 1008م والمتوقي 1130 والذي قاد حركة الموحدين التي خلفت حركة المرابطين في دولة المغرب الكبير التي شملت تونس والجزائر والمغرب وبعض نواحي الأندلس وموريتانيا – كان المهدي يوسف حصورا ولا يقرب النساء. واستطاع أن يرث كل دولة المرابطين التي اسسها المجاهدان عبدالله بن ياسين ومحمد بن تومرت وشملت ذات الرقعة . ولكن يقول منتقدو المهدي بن تاشقين أنه ليس مهديا ولكن سياسيا حاذقا لأنه كان يغرر بالجهلاء ويلقنهم القول بأن الرسول الكريم (ص) أخبرهم بأن بن تاشقين هو المهدي ويلقى بهم في الآبار ثم يسمع الدهماء قولهم ثم يطمر عليهم البئر " راجع دراسة د. الصلابي عن حركة الموحدين (بن تاشقين) وكذلك كثر أدعياء المهدية (راجع دراسة الصادق المهدي).

ونحن لا يلزمنا أن نبحر في المصداقية الذاتية لصاحب الدعوة – ولكن ما يهم هل إذ نجحت راية الدعوة المهدوية في إشعال وقود الثورة هل يمكن أن تنجز مطلوبات صناعة الدولة وإصلاح المال والحال وإقامة مجتمع الحضارة الإيمانية ، هل يمكن أن يتحول لاهوت الثورة من اللامعقول إلى المعقول والمعلوم والمنظور – اللامعقول والحضرات والإيمان بالبطل يصلح لتحريك العامة والدهماء لأنّ الثورة أحيانا فعل لا عقلاني يقوم على تجاوز نعمة العقل وحسابات العقل لصناعة المقاومة والثورة – لأن أصحاب العقول والحسابات ليس فيهم روح المغامرة والإذعان والإنقياد دعك من أن تكون فيهم طاقات التضحية .

واجه المهدي خيارات صعبة ، فأهل الحظوة والتدين والتقليد لا يؤمنون بلاهوت الثورة " قيادات الطريقة السمانية مثلا " حيث لا يتفق لاهوت الثورة على ما علموه من الدين بالضرورة – ولكن الأوضاع الاجتماعية والمظالم والطغيان جعل مجتمغ المهمشين يغلي كالمرجل ولذلك اندفعت مجتمعات كاملة للقبول بلا هوت الثورة بدون محاكمة لإتفاقه مع الدين أو ما يفهمونه من الدين ولكن اللاهوت الجديد يستحبب لأشواقهم في المقاومة والكفاح ومجاهدة الظلمة والأمر بالمعروف – وتعليق مطلوبات مابعد الثورة والتحرير على رقبة المهدي ، وإن مهديته وكراماته وهو المؤيد بالله سبحانه وتعالى سيملأ أرض السودان عددا وتنمية ، وهنا كانت المفارقة .

والخلاصة أن لاهوت اللامعقول لن يقود إلى نظام إسلامي أو حتى نظام مدني يحل إشكالات ومطلوبات النهضة والعدالة .

لاهوت اللامعقول في أي زمان ومكان عاقبته قد تكون سفك الدماء والفتن دون طائل .

لاهوت المعقول في أحسن حالاته ينتج جماعة منغلقة (طائفة دينية) حتى وإن صمدت فهي جرح يزيد في الفتق الاجتماعي.

أ.د. حسن مكي محمد أحمد